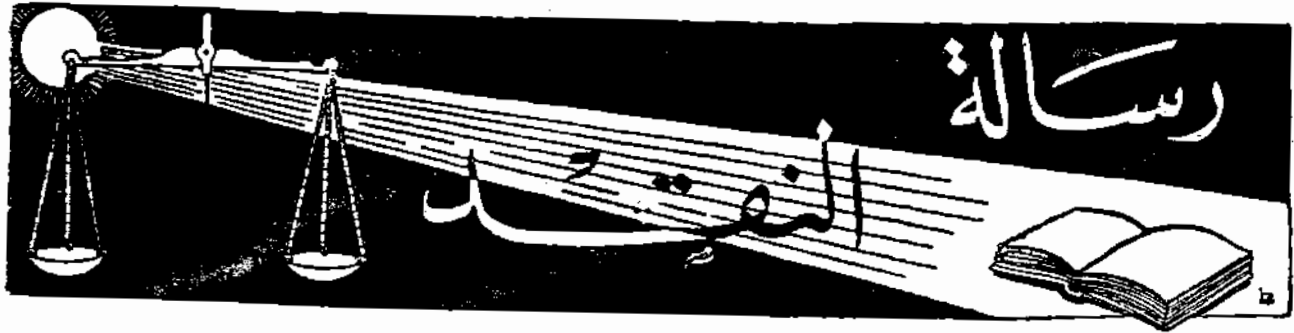




فصل المقال

فيما دار من نقاش حول « مباحث عربية »
للدكتور إسماعيل أحمد أدهم

— ٢ —

أما عن التليس في سوق الروايات والواقعات في كتاب
« مباحث عربية » فإليك بعض من ذلك :

١ - أسند الدكتور بشر فارس ص ٦٠ من كتابه « مباحث
عربية » ثمانى روايات جملة إلى ١٦ مرجعاً منها أربعة مراجع

ولسوف نستخدم ما نملك من وسائل في بث الفضائل وتدعيم
الروح القوى النبيل ، وفي تهذيب الذوق العام بتشجيع الفن
الصحيح والدنو به من السكّال وتمويد الناس فهم الجمال .
وعندذاك ترقى النفوس والعقول ويتم للشعب بلوغ ما نصبوا إليه
من مرتبة عالية بين الشعوب الراقية المحيطة

إن هذه الوزارة لا يمكن أن يقوم موظفوها وحدهم بكل
السب . هنالك دعامة قوية من الدعام التي ترتكز عليها دائماً
أعمال الإصلاح ، هذه الدعامة القوية هي التطوع . بشوا الدعوة
ممن إلى الزملاء في شتى أوساط الشعب لإيجاد التطوعين للإصلاح
نحن في حاجة إلى تجنيد أكبر عدد من التطوعين للإصلاح

أحمد عرابي

اضطربنا لقطع سلسلة البحث في تاريخ عرابي نظراً للظروف
الحاضرة ؛ وسنعود إلى وصلها في الوقت المناسب
وابتداء من العدد القادم سندرس شخصية مازينى أحد
أبطال الحرية في التاريخ الحديث

مخطوطة ؛ والفرض من ذلك الوصول إلى إثبات أن « التعريف »
الحقيقي الناهض على التمييز للفظ المروءة غير ممكن ، وليصل إلى
هذا فقد ساق الدكتور بشر هذه الروايات جنباً إلى جنب ، وأسندها
جملة إلى مصادرها بالجملة للتمييز ، حتى لا ينظر القارى مصادر
كل رواية ويتدبر معانيها في مكانها ووجه مجيئها من الكلام .
لأن في ذلك الخطر كل الخطر على البحث إذ يثبت أن الروايات
تأتى في كلها لفظة « المروءة » من أصل واحد يحمل مدلول
السيادة من جهة ويتضمن السجاياء الرفيعة التي يتقوم بها شخص
السيد . بيان ذلك :

(١) يقول النورى : « المروءة بذل الهدى ، وكف الأذى ،
وترك الهوى ، والزهدي في الدنيا ، وطاعة المولى » ، وهذه الرواية
بهذا الإطلاق يتنافر فيها مفاد المروءة مع المدلول الحقيقي للفظ
وهذا ما يريد أن يصل إليه الدكتور بشر ، وهذا هو التليس
لأن هذه الرواية لو أسندت إلى مصادرها ، وهو مخطوط كتاب
« الفتوة » للأردبيلي — أيا صوفيا ٢٠٤٩ — وهو مخطوط
في التصوف كما وصف ذلك الأستاذ F. laeschner في مبحثه
المعنون باسم Der Anteil des Sufismus an der Formung
Futuwasaidals والنشور بمجلة Der Islam التي تصدر عن
مببورج ، م ٢٤ ص ٥٨ ، لظهر أن لفظة المروءة في هذه الرواية
تأخذ مفادها من وجهة المتصوفة ، وفي ذلك الوقت يتسق مفاد
اللفظة في الرواية مع مدلول الكلمة الناهض على التمييز

هذا وقد نهى أحد الزملاء إلى أن هذا المخطوط الذي وردت
فيه الرواية ، نشره الدكتور بشر في مقتطف إبريل سنة ١٩٣٩
والعجيب أن يقول في المقدمة . « تدخل الفتوة على قلم الأردبيلي
في التصوف ، وكذلك المروءة التي هي شعبة من شعبها في كتاب
الأردبيلي ١ »

(ب) يقول معاوية : « المروءة احتمال الجبرية وإصلاح أمر

بالواقعات ويدبرها منحرفة عن حقيقتها بعض الشيء حتى يتحصل له من انحرافاتها النتيجة المقصودة . وقد سبقت الإشارة إلى بعض طرق الالتواء في بحثه ، وإليك طرقاً أخرى :

(١) لو كانت المروءة واضحة المعنى ما عثرنا على تعريفات لها لا يكاد يقع بعضها على بعض ، ولا أصبنا أقوالاً فيها ربما تنافرت بل تدافعت . وبهذه الجملة يلج البحث الدكتور بشر فارس . والذي عندي أن اختلاف التعريف إن جاء من عبارات بقصد بها بيان كيفية المروءة ، فذلك لا يقع على بعض مدلول لفظة المروءة . بيان ذلك أن لفظة الرجولة لهدنا هذا واضحة المعنى ، ومدلولها ناهض على التميز ، ولكن كل إنسان حسب طبيعته وأخلاقه وسجاياء ونظراته يعطى اللفظة لوناً يقع على كیفيتها من جهة الصفات لا على مدلولها الذي يدل على المعنى . ومن المهم في تدبر المعنى الحقيقي réelle للفظ ملاحظة هذه الاعتبارات . والآن على ضوء هذا الكلام لننظر في مبحث الدكتور بشر فارس أولاً — يأخذ الدكتور بشر قول أبي الحاتم البستي : « اختلف الناس في كيفية المروءة » (روضة المعلاء ص ٢٠٧) دليلاً على تضارب التعريفات والأقوال حول لفظة المروءة . والرواية تقصر عما يريد صاحبنا بشر أن يحملها ، لأن كلام أبي الحاتم البستي يقع على الصفات لا على المعنى ، والمعنى اختلاف الناس في كيفية المروءة لا في مدلولها

ثانياً : يستدل الدكتور بشر من سؤال معاوية : « ماتمدون المروءة؟ » على أن معنى المروءة (أو مدلولها) أشكل على المسلمين . والاستدلال خطأ ، لأن السؤال يقع على ما كان يعدونه ، وعد الشيء مربوط بكيفيته (أو صفاته) ، فالصوفي يعد المروءة مثلاً : « ترك الهوى واتخذ في الدنيا وطاعة المولى » ، ورجل الدنيا يعدها « كثرة المال والولد » . فهذه الدلالات للفظ المروءة تقع على الكيفية منها لا المدلول

ثالثاً : نرى الدكتور بشر أن المروءة تفيد معنى السيادة قائلاً ما ملخصه : « إن الاستناد إلى مشتقات مادة (م ر ء) ولا سيما اسم الفاعل منها في الآرامية لإثبات إفادة المروءة للسيادة خطأ ، لأن لفظة مرء عربيّاً وهي اللفظة الناطقة إلى اللفظ الآرامي إنما مفادها الإنسان . وهذا يدفع أن تكون المروءة أفادت السيادة أول الأمر » هذا وهو يدفع القول ، بأن باب المروءة وقع في كتاب السؤدد من عيون الأخبار لابن قتيبة ، بأن المصدر

المشيرة « فهذه الرواية رغم أنها تحمل في طياتها إشارة إلى سجايا السيد وإفادتها سياسة الملك ، فقد أتى بها بشر فارس ليستدل على أن مدلول لفظة المروءة غير ناهض على التميز . وهو في الوقت نفسه يذكر ص ٦٧ في الحاشية ، في الهامش رقم ٣٤ هذه الرواية ، والمثلن يحمل الإشارة إلى أن الرواية مفادها سياسة الملك !

(ج) يقول عمر بن الخطاب : « تعلموا العربية فإنها تزيد من المروءة » . ويقول مسلمة بن عبد الملك : « مروءة ما نأظره تان : الرئاسة والفصاحة » . والدكتور بشر لا ينكر في الرواية الثانية أن لفظة المروءة تنزع إلى السيادة ، مع أنها تنجى من الفصاحة وإذن ففاد الرواية الأولى واضح في إشارتها إلى السيادة وسجايا السيد ، من حيث أن العربي كان يرى معرفة العربية سبيل الفصاحة والفصاحة من أسباب الكمال والكمال من متطلبات سجايا السيد

(د) في عام ١٩٣٢ أخرج الأستاذ بشر فارس كتاباً بالفرنسية اسمه « المرض عند عرب الجاهلية » وتقدم به لينال إجازة الدكتوراه من جامعة باريس . وموضوع هذه الأطروحة أن « أخلاق عرب الجاهلية تدرج تحت معنى المرض » (أنظر L'Honneur chez les Arabes avant l'Islam باريس ١٩٣٢ ص ٣٢ وما بعدها) . ولما كان جولد تسبير Goldziher أحد مشيوخ الاستشراق قد كتب في كتابه Muhammedanische Studien طبع Halle سنة ١٨٨٩ ج ١ ص ١ — ٤٠ — فصلاً كاملاً عن المروءة ذهب فيه إلى أن « المروءة كانت تنزل منزلة الفضيلة Virtus عند عرب الجاهلية » . وهو في هذا على نقيض من الرأي الذي ذهب إليه الدكتور بشر ، فقد اضطار صاحبنا بشر أن يعود عام ١٩٣٧ ليناقش رأي جولد تسبير لأنه صاحب رأي خاص في الموضوع فكتب مادة « مروءة » في تكملة دائرة المعارف الإسلامية ، ثم توسع بالمادة فكان منها موضوع مبحث المروءة من كتاب « مباحث عربية » وهو يشغل الصفحات من ٥٧ — ٧٤ ، وهو إلى هذا الحد لم يرتكب وزراً ، ولكن موضع التواخذ جاء من جهة محاولة إيهام القارئ أن بحثه في المروءة ليس عن فكرة سابقة a priori ، وإنما هو نتيجة التدبر والتدرج من الواقعات للنظر (كما يقول ص ٧٣ من كتابه) ، وهو لكي يصل للغرض يوهم القارئ — والإيهام ليس بالشيء القليل — ثم يمد لطرق ملتوية لتمجيز القارئ حتى لا يكشف كيف يعمل

(ص ٦٥ من مباحث عربية) ، وهو بهذا يخلع الجانب المعنوي على الجاهلية . وفي هذا التضارب والتناقض ما فيه مما لا يحتاج إلى بيان ...

سادساً : يعتمد الدكتور بشر على رواية الأغاني : « أن عينة ابن مرداس كان مموّراً فقصد إلى عبد الله بن عباس يسترفده ويرغب إليه أن يمينه على مروءته . فردّه ابن عباس لانهامه إياه في مروءته » ليصل إلى أن المروءة كانت تجيء معنوية من المصّر الإسلامي وحسية من الجاهلية ؛ وهو يملق على هذه النتيجة بقوله : « إن ابن عباس نظر إلى المروءة بعين المسلم فزهرها عن المادة وأزهرها منزلة الخلق الحسن . وابن مرداس نظر إليها بعين الجاهلي فرأى فيها إغاة له حتى لا يشتهي طعام غيره »

والرد أن الرواية لا تسعف الدكتور بشر بالنتيجة التي أراد أن يحصلها ، لأنه لا يتحصل منها أن ابن عباس نظر إلى المروءة بمعنى المسلم ، وإنما الصحيح أن يقال إنه نظر إليها من طبيعته ، كذلك لم ينظر إليها ابن مرداس بعين الجاهلي ، وإنما الصحيح أنه نظر إليها من طبيعته ، والفرق بين النظريتين ، كالفرق بين الطبيعيتين ، وهذا الاختلاف في النظر راجع إلى اختلاف النفوس لا إلى اختلاف الزمان ، ومن أمثال الذين ينظرون نظرة ابن مرداس للمروءة كثيرون في كل زمان ومكان .

سابعاً - مضى الدكتور بشر في بحثه ، وكأنه يتمتع بروايات مختلفة من أزمان مختلفة ، وأعطى المروءة مفادات مختلفة ، كل مفاد خاص بمصر ، وانتهى ببحثه إلى أنها لم تنزل منزلة الفضيلة على جهة المائلة إلا في المصور المتأخرة . والرأي الصحيح في الموضوع أن الروايات التي أتى بها الدكتور بشر فارس متسقة وكل منها تقع على لون خاص من مدلول المروءة ، وهذا اللون مرتبط بالتاحية الكيفية (سور) للفظلة . وهي من هنا لا تأخذ دليلاً على التطور التاريخي . والأسفل في البحث اللغوي لتاريخ لفظلة أن يكون الباحث صاحب نظرة فلسفية تتغلغل في صفحات الماضي وتستمد من طبيعة الحالات الناعمة في المصّر صورة تقييمها في ذهنها بمحس على أساسها الباحث الروايات التي تعرض له ويكشف ، عن مقدار تأثرها بحالات المصّر ، وهل هي راجعة لاختلاف النفوس والطبائع ، أم إلى اختلاف الزمان ، وذلك لا يتأتى إلا من طريق النفوذ من مادة الرواية وهو الجسم المنظور إلى روحها وهو ما وراء المنظور

[البقية في ذيل الصفحة التالية]

المذكور لم يثبت غير قول واحد نزع فيه المروءة لمعنى السيادة والرد عندنا أن الدكتور بشر ذكر في موضع آخر من كتابه أن المروءة تدرج مقرونة بالسؤدد من كتاب مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب ... (رقم ٤٠٩ مخطوط ليدن ص ٥٣٢ - ٥٣٤ ع ٢٩٧ من الرسالة) والدكتور بشر يقول في مقدمة هذا المخطوط : (وفي المصدر الأول تعريفات وأقوال في المروءة على أنها لون من ألوان السيادة وشرط من أشراطها) الرسالة الممدد ٢٩٧ ص ٥٣٣ . أما عن مجيء هذه الروايات من الجاهلية أو عدم مجيئها ، فلا يؤثر على القضية في شيء ، لأن جلها أتى من صدر الإسلام ، والعربية لم تتناثر فلا معنى للاحتجاج بأنها ليست من الجاهلية . وإذن يبقى معنا لفظلة المروءة نازعة منزع السيادة في الجاهلية وصدر الإسلام ، بمكس ما حاول أن يوم الغارى بطرق ملتوية الدكتور بشر في مباحثه العربية رابعاً : ينكر الدكتور بشر فارس أن المروءة أفادت السيادة - وأكبر الظن عنده - أنها ضمت ، أو ما ضمت محاسن خلق الإنسان ، ثم - من طريق التجديد والمجاز - محاسن خلقه « وهو في رأيه هذا لا يذكر السبب الذي جمعه يميل مع هذا الظن . فضلاً عن أنه لا يستند في ظنه هذا إلى أكثر من فصل مخطوط تحت رقم ٢٠٤٩ بأيا صوفيا ، يشتق فيها المؤلف المجهول المروءة من مراء الطعام وامرأة ، وإذا تخصص بالمرى لموافقته للطبع . فكأنها اسم الأخلاق والأفعال التي تقبلها النفوس السليمة ، فعلى هذا يكون اسماً للأفعال المستحسنة كالإنسانية ، وهذا الرأي من الكتاب أحد رأيين ثانيهما أنه يجعل المروءة من المراء فيجعلها اسماً للمحاسن التي يختص بها الرجل فيكون كالرجولية ، ولست أدري ما الذي جعل الدكتور بشر يميل مع الرأي الأول ؟ وليس في بحثه ما يرجح الرأي الذي أخذ به إلا قول بل أكبر الظن ! »

خامساً : يرى الدكتور بشر أن الأقوال والروايات التي ورد فيها لفظلة المروءة ، فيها جانبان متضادان كلاهما معقود على الآخر : الأول حسي والآخر معنوي ، وهذا غلاب على ذلك ؛ وهو يذهب إلى : « أن الجانب الحسي يتجدر من زمن الجاهلية وأما الجانب المعنوي فصدره الإسلام » (ص ٦٣ من مباحث عربية) غير أنه لا يثبت على هذا الرأي سرياً فلا يلبث أن يتقضه ويقول : « وكان الحسي والمعنوي أخذاً يتجاذبان المروءة أيام الجاهلية »